قضايا حول الشعر العربي*

الأستاذ محمد عبد الغني حسن

قضايا الشعر في القديم والحديث كثيرة ، والشعراء لايستريحون ولا يريحون .. فهم منذ القدم أثاروا كثيرا من المسائل المشكلة ، والأمور المعضلة .. ألم يثيروا في أدبنا المعاصر قضية « الشعر الحر » أو الشعر المنفلت ، او الشعر المتسيب ، أو الشعر المتمرد ، كما يحلو لخصوم هذا الشعر أن يسموه نكاية به ، وازراء عليه ؟ كاننا في هذا العصر القلق المتعب لم تكفنا مشاكل الحياة السياسية ، فجاءنا اخواننا شعراء التجديد ، بمشكل جديد . فصرنا منهم كما قال شاعرنا القديم :

ولو كان همّاً واحدا لاحتملته ولكنه هم ، وثان ، وثالث

ونحن في هذا المقام ــ الذي لو يقوم فيه الفيل او فياله لزلّ عنه وزحل ــ لنرجو أن يكون كلامنا خفيفا على قلب هؤلاء الشعراء المتمردين على قيود العروض ، حتى ولو كانت تلك القيود مجدولة من من الذهب والجمان الخالص ...

ومن الغريب أن شيخنا وإمامنا وأميرنا « شوقي » قد رفض كل قيد في الحياة ، اتباعا لمذهبه العظيم من تقديس الحرية الغالية حين قال :

(*) بحث ألقاه الزميل الاستاذ محمد عبد الغني حسن في مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة « الدورة السادسة والاربعون ١٩٨٠ » .

والقيد لو كان الجمان مفصلاً لم يحمل

إلا قيود الشعر بأوزانه وقوافيه ، فقد قبلها شوقي راضيا مختارا، ونظم منها كل شعره المعجز المبدع ، فما استعصى عليه معنى ، ولا عزت عليه فكرة ، وجاء شعره سويا كالطبع السويّ ، والخلق الرضيّ • وكذلك كان أستاذنا وزميلنا الراحل عزيز أباظة حين دافع عن قيود الوزن والقافية في محاضرته الرائعة (الشعر بين أصيل وهزيل) التي ألقاها في مؤتمر الدورة السابعة والثلاثين سنة ١٩٧١ م ولهذا لن تتعرض الليلة لقضية « الشعر الجديد » إيثارا للسلامة ، واكتفاء بما قاله الكرام الراحلون من أمثال عباس محمود العقاد ، وعزيز أباظة ، وعلي الجنديّ ، وصالح جودت طيب الله ثراهم ، وبما قاله العلاّمة زميلنا في المجمع الاستاذ بهجت الاثري اطال الله عمره في الرد على هذا المذهب الوافد الغريب ••• ولأننا نود ان نصبر على هذا المذهب زمنا حتى يتبين جفاؤه من نفعه ، ولأننا من ناحية ثالثة لا نود ان تتعرض لعداوة الشعراء عملا بالحكمة الشعرية القديمة القائلة : وعداوة الشعراء بئس المقتنى •

كما لن تتعرض هذه الليلة للخطأ اللغوي في الشعر ، ولو أنه شائع اليوم بلا انضباط بين ابنائنا واخواننا الشعراء العموديين ، أو بعبارة أدق شعراء الوزن والقافية •

وسكوتنا عن التعرض للخطأ في الشعر ليس لضعف منا ، ولا لإباحة له •• ولكنا نكتفي بما حكم به عليه شيوخ النقد في القديم ، من أمثال الجرجاني صاحب الوساطة ، وابي هلال العسكري صاحب الصناعتين ، والقزاز القيرواني صاحب كتاب (ما يجوز للشاعر في الضرورة) ، وابن فارس صاحب كتاب (الصاحبي في فقه اللغة وسنن

العرب في كلامها) ، وصاحب رسالة (ذم الخطأ في الشعر) التي نشرها الدكتور رمضان عبد التواب محققة مدققة في الجزء الذي صدر أخيرا من مجلة معهد المخطوطات العربية • ولابن فارس كلام جيد لابأس أن نستحضره هنا حيث يقول : (فان قالوا إن الشاعرَ يضطر الى ذلك لانه يريد اقامة وزن شعره ، ولو انه لم يفعل ذلك لم يستقم شعره ، قيل لهم : ومن اضطره أن يقول شعرا لا يستقيم الا بإعمال الخطأ ؟ ونحن لم نَرَ ولم نسمع بشاعر اضطره سلطان أو ذو سطوة بسوط أو سيف الى أن يقول في شعره مالا يجوز ، وما لا تجيزونه أنتم في كلام غيره ؟ فان قالوا ان الشاعر يعن له معنى ، فلا يمكن إبرازه الا بمثل اللفظ القبيح المعيب ؟ قيل لهم : هذا اعتذار أقبح وأعيب • وما الذي يمنع الشاعر اذا بنى خمسين بيتاً على الصواب أن يتجنب ذلك البيت المعيب ولا يكون في تجنبه ذلك ما يوقع ذنبا أو يودي بمروؤة ؟) •

الواقع أن التشدد في نقد الاخطاء في الشعر سيحمد أثره ، كنقد الاخطاء في الوزن والقافية ، ولن يجرنا الى ان نلتقي مع شاعر كبير من الرواد في اللغة ، والشعر ، والأدب ، حين يقول رحمه الله ــ من قصيدته عن الأم (ست الحبايب) :

ما أشق الحياة لولا نسيم من لدن أمهاتنا يهب نديا

بزيادة سببين خفيفين في الشطر الثاني ، انكسر بهما الوزن كسرا لا يجبر • وصوابه أن نعدل عن صيغة الجمع في (أمهاتنا) إلى صيغة المفرد ، فيعتدل الميزان حين نقول : (من لدن امنا يهب نديا)

ولو أن التعبير بالجمع هو الاليق والاوجب هنا • والتشدد في

النقد أيضا لن يجرنا الى أن نلتقي مع هذا الشاعر الكبير نفسه في قوله من قصيدة (لغز الالغاز) ، والضمير في البيت يعود على (حواء) ، وهي كناية عن المرأة في كل العصور :

وهي فينا تقدست ذاتهـا تسـ طيعُ منالاً لكل مالا ينال !

والبيت كما تشهد آذانكم الموسيقية ، وقواعـدنا العروضيـة مكسور كسرا لا يصلحة « برسوم » المجبر ، ولا حتى زميلنا المجمعي الراحل الطبيب الجراح مجبر العظام الدكتور محمد كامل حسين عليه رضوان الله .

بعد هذه المقدمة ـ وقد طالت والتمسْت عفوكم ـ سيكون حديثنا الليلة حول قضيتين اثنتين من قضايا الشعر : الاولى : اضطراب الوزن وعدم اقامته ، والثانية : نسبة الشعر الى غير اصحابه الاصليين.

وسنرتد بالبحث الى الأدب القـديم ، وُصولاً بنـا إلى الأدب المعاصر الذي هو مناط دورتنا المجمعية الحاضرة السادسة والأربعين ، ومدار المحاضرات فيها ..

يدخل الشعر العربي مجال الاستشهاد به من أبواب كثيرة ... فهو مليح حين يُقرأ أو يسمع ، وهو مليح حين يستشهد بالبيت أو الأبيات منه لتاييد قضية ، أو اذاعة محمدة ، أو بناء مكرمة ، مما يؤكد صدق شاعرنا أبي تمام :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناة العلا من أين تؤتى المكارم

ويبدو أن كثرة الاحتفال بالشعر ، والاحتشاد به في الاستشهاد كانت سببا في الجناية عليه .. كما أن شدة العناية بروايته أدت الـى قلة الاهتمام بمتنه ونصه ، ووزنه وصحة نسبته الى اصحابه وبهـذا

غدونا أمام سيل عرم من الأوهام والاخطاء ، وأصبح كل ما يروى يسمى شعرا ، سواء أكان موزونا أم غير موزون •

واذا كنا قد أنزلنا الشعر منزل الاحتفال والاهتمام ، والايثار بالاستشهاد ، فلابد أن نرويه على أصح وجوهه ، وأسلم أوزانه ، والا عدونا الحدود التي وضعها له العرب ، وخلطنا في روايته بين عمل صالح وآخر سيّىء ••

ولا يقال في هذا المقام ان النبي عليه السلام كان لايفرق بين الشعر الموزون وغير الموزون ، على الرغم مما أثر عنه من تقدير للشعر الكريم الصادق ، ولكرام الشعراء الذين نظموه • فان الله ما علمه الشعر مخافة أن يتهم بما لم يسلم منه الشعراء وأتباعهم من الغاوين •• وقد شهد الله له بقوله : (وما علّمناه الشعر وما ينبغي له) •

وهناك أكثر من حادثة تؤكد أن النبي عليه السلام كان يتعمد الا يقيم وزن الشعر حين يستشهد به او يرويه •

يروى ان الشاعر « سُحيما » (عبد بني الحسحاس) ــ وديوانه محقق منشور بعناية العلامة المغفور له عبد العزيز الميمني الراجكوتي ــ كان النبي صلى الله عليه وسلم ــ يستشهد ببعض شعره الحكيم •

فتمثّل يوما بقوله :

كفى الشيبُ والاسلامُ للمرء ناهيا

ولكنه رواها هكذا : كفى بالشيب والاسلام للمرء ناهيا

مما اخل بالوزن ، وجانب الاصل • وكان ابو بكر الصديق رضي

الله عنه حاضرا ذلك المجلس النبوي ، وسامعا رواية النبي ، فقال : انما هو : (كفى الشيبُ والاسلامُ) ... فأعادها النبي عليه السلام كالاول على غير وجهها الموزون ، فقال ابو بكر معقبا ومعلقا : (اشهد أنك لرسول الله ، وما علمناه الشعر وما ينبغي له) .

وفي حادثة ثانية رَوَى النبي عليه السلام بيتَ الشاعرِ طرفةَ بنِ العبد :

ستبدِي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

هكـذا :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزود بالأخبار

فاختل الوزن ، وتغيرت القافية ، ولكن بقى المعنى الجليل كما هو لم تغيره الروايـة .

وفي حادثة ثالثة روى عليه الصلاة والسلام بيتَ الشاعرِ العباس ابن مرداس :

أتجعل نهبِي ونهْب العُبَيْد[1] بيـن عُيينة والأقـرع

هكذا :

أتجعل نهبِي ونهْب العُبَيْد بيـن الأقـرع وعيينـة

ولا يعني هذا إغفالا من النبي عليه السلام لقدر الشعر أو اهمالا له ، والا فكيف يتفق هذا مع اهتمامه بروايته والاستشهاد به ؟ وإنما كان ذلك انصرافا منه عن قول الشعر واقامة وزنـه حين يرويه ، حتى

---

(١) العبيد بضم العين اسم فرس للشاعر .

تتحقق شهادة الله له كاملة من ناحية النظم أو الإنشاد أو الاستشهاد. وقد عرفنا موقفه الكريم من الشعراء الذين نصروه بألسنتهم ، حين دعاهم الى الرد على شعراء قريش من أمثال عبد الله بن الزبعرى ، وكعب بن الأشرف ، وأبي سفيان بن الحارث . وهل ننسى شعر حسان ابن ثابت في الدعوة وفي الدفاع عن النبي ؟ وفي هجاء المشركين من قريش ؟ وهل ننسى شعر عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ؟ وهل ننسى ــ فوق ذلك ــ أنه كان عليه السلام يكثر من استنشاد الشاعرة « الخنساء » شعرها في رثاء أخيها صخر ، ويقول لها : هيه ياخناس أي زيدينا . وهل ننسى أنه استمع لكعب بن زهير وهو ينشد أمامه لاميته المعروفة باسم « بانت سعاد » فعفا عنه وأثابه عليها بردة اشتراها منه معاوية بن أبي سفيان بمال كثير ؟ ؟

ونحن إذ ندعو الى ضرورة اقامة الوزن حين ننظم الشعر او ترويه ــ منشدين أو مدونين ــ لا نجري هذه القاعدة الحتمية على النبي محمد بن عبد الله ، ولا نلزمه بها ، فقد رفعه الله بشهادته فوق هذه القاعدة . أما من عدا محمدا من كل عربي او ناطق بالعربية فإننا نأخذه بقيود الشعر وحدوده التي وضعها له العرب ، لا نستثني من ذلك أحدا مهما كان شأنه ، وإلا بات امر الشعر فوضى ، وتعلقنا من ذلك القيد الذهبي الجميل الذي قيدته به الأوزان والقوافي ...

ومن عجيب الأمر أن شاعرا جاهليا مرموق المكان ومن أصحاب المعلقات قد اختل الميزان الشعري بين يديه في معلقته أو مجمهرته التي مطلعها :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

ونستطيع أن نسمي شعرها مكسورا إذا قسناه بالمقاييس الصحيحة الدقيقة التي وضعها الخليل بن أحمد . ولم يستطع أحد أن يعلل لنا سبب اضطراب الوزن عند (عَبيد) ، ولماذا كانت نغمات هذا الشاعر المجود نشازاً في الشعر العربي كله ؟ أكان ذلك منه فقدانا لحاسة الوزن السليم عند العربي الشاعر مهما كانت طبقته بين أصحاب الطبقات ؟ أم كان ذلك من اختلاف الرواة ؟ ولكن مهما اختلف الرواة فإن عجيبا ان يروُوا شعرا غير مستقيم الوزن . وهل فاتهم ذلك الاضطراب في الوزن ، أم عرفوه — بفطرتهم — وتركوه على حاله في أمانة الرواية ؟

وايا ما كان الأمر فإن هذه الظاهرة الغريبة في شعر « عَبِيد » لم تفت أبا العلاء المعري بعد قرون فقال مشيراً إلى اختلال الوزن عنده :

وقد يخطىء الرأيَ امرؤٌ وهو حازم
كما اختل في وزن القريض « عَبِيد »

واذا كان عبيد بن الأبرص الجاهلي لم يسلم من اختلال الوزن في شعره ، كما لم يسلم من التفاتة ابن منظور والمعري إليه ، فإن الشاعر الآخر (المرقش الأكبر) لم يسلم من اضطراب الوزن بين يديه في ميميته المشهورة المنشورة في « المفضليات » بتحقيق المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر وزميلنا الأستاذ عبد السلام محمد هارون ومطلعها :

هل بالدِيارِ أن تجيب صمم لو أن رسماً (حيّاً) ناطقا كلّمْ

الـدارُ قَفْرٌ والرسومُ كما رَقْش في ظهر الأديم قلمْ

ولم يسلم (المرقش) كذلك من نقد ناقد قديم بصير هو ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) حيث قال عن هذه الميمية : (والعجب عندي من الأصمعي اذ أدخله في متخيره ، وهو شعر ليس بصحيح الوزن ،ولا حسن الروي ، ولا متخير اللفظ ، ولا لطيف المعنى ، ولا أعلم فيه شيئا يستحسن إلا قوله :

النشر مسكٌ والوجوه دنا نير واطراف الأكف عَنَمْ) اه

أقول : ومن الطريف هنا أن « ابن قتيبة » قد جانب الصواب حين زعم أن الاصمعي قد أدخل تلك الميمية في اختياراته المسماة « بالأصمعيات » فهي لم ترد فيها ولكن وردت في « المفضليات » للضبي وشتان بين الرجلين ، وبين الكتابين •• وهو وهم من ابن قتيبة يؤكد من جديد أن الكمال لله وحده • وقد صححه زميلنا العضو عبد السلام هارون مشتركا مع المرحوم الشيخ أحمد شاكر •

واذا كنا رأينا الآن ان الوزن الشعري لم يستقم عند شاعرين من شعراء العصر الجاهلي ، فإن شاعرين من فحول الشعراء في القرن الثالث الهجري ، بل من فحول الشعراء في تاريخ الشعر العربي كله قد أخذ على كل منهما اختلال الوزن واضطرابه بين أيديهما ، وهما أبو تمام والبحتري • فالناقد الامام الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠) وصاحب كتاب (الموازنة) المشهور يقع على بيت مكسور من همزية للبحتري • والبيت هو :

(ولماذا تَتَبَّعُ النفسُ شيئاً جعل الله الفردوس منه بواءَ)

ويقول الآمدي في تعليقه على هذا الكسر : (وكذلك وجدته في أكثر النسخ • وهذا خارج عن الوزن) ثم أخذ عقب هذا يقطع البيت تفعيلة تفعيلة ليكشف زيادة سبب خفيف في البيت ، وهو الهاء من الله ، واللام من كلمة الفردوس • وهذا عيب فظيع في الشعر • ولكن الناقد عاد فروى للبيت رواية أخرى تقول : (جعل الله الخلد منه بواء) • ثم اعتذر له بقوله : (فإن يكن هكذا قال فقد تخلص من العيب ••)

وفي كتاب (عبث الوليد) المنسوب الى « المعري » ذكر البيت مختلا كما في (الموازنة) • ولكن فيه ما يؤخذ منه ان الذي أصلح الخلل ووضع (الخلد) مكان (الفردوس) هو ابن العميد ••• والغريب أن « أبا العلاء » في (عبث الوليد) أضاف بيتاً آخر مضطرب الوزن عند البحتري ، وهو قوله :

وأحق الأيام بالحسن أن يؤ ثر عنه يوم المهرجان الكبير

وللآمدي في الموازنة كشف آخر عن وزن مضطرب في شعر البحتري ، وهو قوله :

حلأتنا عن حاجة ممنوع مبتغاها ، وحاجة ممطولة

فتقطيعه ووزنه هكذا في العروض : فاعلاتن مستفعلن مفعولن • وهذا لا يجوز في العروض إلا اذا كان البيت مصرعا •

وقد تعقب الناقد الآمديّ (أبا تمام) كما تعقب البحتري ، فوقع عنده على زحافات كثيرة في الصدر ، أو في العجز ، او فيهما معا ••• والزحافات جائزة غير منكرة إذا قلّت° ، ولكنها اذا جاءت في

بيت واحد في أكثر أجزائه او تفعيلاته كان هذا في نهاية القبح ، ويكون بالكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون • ومن أمثلة ذلك عند أبي تمام قوله :

يقول فيُسمعُ ، ويمشي فيُسرعُ ويضرب في ذات الإله فيرجع

فحذف النون من (فعولن) الأولى • وحذف الياء من مفاعيلن التي تليها وحذف بعد ذلك النون من (فعولن) التي هي في أول الشطر الثاني وهذا الحذف لخامس فعولن ، وخامس مفاعلين هو (القبض) عند اهل العروض • وهو كله زحاف جائز ، الا أنه لما جاء على الكثرة والتوالي في بيت واحد قبح جدا •

ولا يجيز مثلُ هذا الاضطراب النادر جدا في شعر أبي تمام والبحتري أن يتخذ منه الشعراء الضعاف غيرُ مكتملي العدة تكأة يسترون بها ضعفهم ويسوغون بها أخطاءهم •

والحقيقة أن الشعرَ مركبٌ صعبٌ لا يجوز أن يجترىء عليه ضعيف الاداة أو ناقصها • وكما اضطرب الشعر عند بعض الشعراء القدامى على خطأ منهم أو على جهل من الرواة او النساخ ، فانه قد اضطرب أحيانا عند بعض الادباء القدامى • فقد ذكروا أن « أبا على القالي » صاحب « الامالي » كان لا يقيم أوزان الشعر على كثرة روايته له واستشهاده به •

ومما يروى في ذلك أنه حين وفد على الخليفة الاموي الاندلسي (الناصر) هيأوا له ركبا الى قرطبة حاضرة الخلافة في احتفال عظيم ، احتشد فيه أدباء الاندلس وعلماؤها احتفاء بهذا الاديب الوافد من الشرق • وكان (الناصر) ــ وابنه الحكم من بعده ــ يكرمان الأدباء

أوفى تكريم . وأخذ ركب الأدباء يتذاكرون الأدب والشعر مع القالي في خلال مسيرتهم الى قرطبة .. الى أن تحاوروا يوما ــ وهم على المطايا ــ في أدب « عبد الملك بن مروان » ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل في بيت من الشعر الجاهلي لعبدة :

ثمت قمنا الى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

فروى (القالي) البيت هكذا :

أعرافها لأيدينا مناديل

بدلا من (أعرافهن) ؛ مما انكسر معه وزن البيت .. فأنكرها واحد من أدباء الركب هو « ابن رفاعة الألبيري » وكان أديبا ولكن في خلقه زعرة ، وفي صدره حرج .. واستعاد أبا علي القالي مرتين مستوثقا ، فأعادها « القالي » : (أعرافها) لا (أعرافهن) .. فلوى ابن رفاعة عنان مطيته منصرفا عن الركب ، قائلا في حدة وسخرية وتعجب : أمع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتتجشم الرحلة لتعظيمه، وهو لايقيم وزن بيت مشهور بين الناس لايغلط فيه الصبيان ؟ والله لاصحبته خطوة ! وانصرف عن الركب ..

ولم يقف ركب الذين لايقيمون وزن الشعر منذ ذلك الزمن القديم .. حتى كبار الشعراء من أهل عصرنا هذا ، أخذت عليهم مآخذ في الوزن حين نظموا من بحور فيها مزالق الخطر ... ومن ذلك ما أخذه الشيخ ابراهيم اليازجي على « شوقي » في روايته (عذراء الهند) حيث يقول :

هذي سماء الهند شاهدة وأرضها والجبال والسهل

فإن نقلنا لبقعة قدما فللهوى لا البقعة النقل

فجاء الشطر الثاني من البيت الثاني على وزن مغاير للبحر الذي منه البيتان ، فالبيتان من المنسرح ، ولكن « شوقي » نقل الشطر الأخير إلى البحر الكامل في ضربه الأحدّ المضمر ..

وما زلنا نقع في المجلات والصحف العربية على شعر مكسور لزملاء ورفقاء في الدرب ، بغير أن يختل في ايديهم الميزان ، ما بين زيادة أو نقصان ..

ولعل من أعجب الأوهام في هذا الباب عند القدماء ما فعله « ابن إسحاق » المؤرخ الأخباري الذي أخذ عنه ابن هشام « سيرة الرسول عليه السلام » فإن ابن إسحاق لم يكن ذا بصر بالشعر ولا صاحب علم به [نَصَّ ابن سلام في نقد محمد بن إسحاق يتعلق برواية الشعر المنحول ، ولكنه لا يتوقف عند اضطراب أحكام الوزن، والأخطاء في اقامته ، الامر الذي يدور عليه مجمل هذا القسم من هذا المقال القيم] ومن هنا تسربت الى السيرة التي دونها ابن هشام أشعار كثيرة ، ولم يُرد الرجل — وهو بالشعر جد عليم — أن يسكت عنها ، أو يصمت عن التعليق عليها ، فيعيدها مضبوطة مستقيمة سوية .

والشعر المروي يملأ صفحات كثيرة من كتب الأدب والتاريخ والسير والطبقات والتراجم والمحاضرات والأخبار والنودار كالبداية والنهاية لابن كثير ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، ونفح الطيب للمقري ، والكشكول للعامِلي ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني وسراج الملوك للطرطوشي ، والمستطرف للأبشيهى ، وغيرها . ولابد أن نأخذ الشعر في هذه الكتب بحذر ،

وخاصة فيما ظهر منها غير محقق أصلا ، أو غير دقيق التحقيق ، فان فيه اختلافا في الوزن وتحريفا في الكلام يخرجه عن وجهه ، وفيه خطأ في نسبته الى قائليه ، وذلك باب اضطراب في رواية الشعر العربي •

ومن حسن الحظ أن يكون عالم فقيه « كالإمام الغزالي » ذا بَصَر بالشعر الذي يرويه في (إحياء علوم الدين) فهو يسوقه للتدليل والاستشهاد ويدونه على أصح وجوهه وأسلم رواياته وأبعدها من الاضطراب في الوزن وان كان في كثير من الأحيان لاينسب الأشعار إلى قائليها ، بل يكتفي بمثل قوله : « قال الشاعر » ، بدون تعيين • وهو في هذا على الضد من الامام « أبي الحسن البصري الماوردي » • صاحب « أدب الدنيا والدين » و « الأحكام السلطانية » ، و « أدب القاضي » ، وغيرها من الذخائر النفيسة • فهو يسوق في كتابه (ادب الدنيا والدين) كثيرا من الشعر للاستشهاد ، فيحسن روايته ، ويقيم وزنه وينسبه الى قائليه في كثير من الأحيان فان كان على غير علم أو يقين بالقائل سكت ولم يعين ، وما كان أكثر تحقيقه وهو يروي شعرا « لعدي بن زيد » العبادي الجاهلي كان يتوهم أنه لغيره •وروى الإمام الماوردي شعرا للعباس بن الأحنف يوهم أنه لغير العباس ، ولكن بالرجوع إلى ديوانه نجده له •

وعلى سبيل التقابل يحضرنا هنا المؤرخ ابن كثير ، فيبدو من تصفح كتابه (البداية والنهاية) أنه كان لايقيم وزن الشعر ، هذا الى أخطاء النسخ والطباعة في كتابه ، وان كان « النعيمي » يقول عنه في كتابه (الدارس في تاريخ المدارس) إنه نظم الشعر •• ولكن يبدو لنا من اجازته الشعرية لاحد تلاميذه أن الوزن الشعري لم يستقم بين يديه •

والشعر العربي مظلوم جداً حين يظلمه أصحابه اليوم بالكسر واختلال الوزن ، تحقيقا للتراث ، وممارسةً ، والقاء .. وكثيراً ماتستك مسامعنا في المذياع والتلفزيون وعلى خشبة المسرح بشعر يلقى مهشم الاضلاع . واذا كان (سيبويه) يضج اليوم ــ وهو في رحاب الله ــ بأخطاء النحو ، وكذلك (الخليل) يضج بعثرات الشعر والشعراء ، فاننا لنرجو للنحو والشعر اليوم صلاحا على أقلام الادباء والمتادبين ، وعلى ألسنة الرواة والمنشدين .

وهناك طامة كبرى في زماننا هذه غير طامة الكسر في الشعر المنظوم والمروي في كتب التراث المحققة ، والمنشد في المناسبات ،وهي ــ أعني الطامة ــ نسبة الشعر الى غير أصحابه الحقيقيين ، وقائليه الأصليين واذا كان هذا حادثا وجائزا في العصور السابقة ايام كان الناس يعتمدون على الرواية الشعرية الشفوية ، ولم يكن هناك شعر مدون مسطور ، وانما كان شعر محفوظ في الصدور ، فان هذا غير جائز في زماننا هذا حيث يتم تسجيل الشعر وتدوينه عن طريق الكتاب المطبوع الذي تعد نسخه بالآلاف لا كما يعد الكتاب المخطوط على اصابع اليد الواحدة ، أو اليدين على الاكثر ..

وأوهام القدماء في نسبة الشعر إلى غير قائليه كثيرة جدا ، تقع في البيت الواحد والبيتين والمقطوعة والقصيدة الكاملة . وهذا باب في بحر لا ساحل له ولا سبر لأغواره ، ويحتاج تحقيقه وضبطه وتصحيح نسبته الى مجلدات والى محققين ثقات ، يقابلون كتب الاخبار والنوادر والمحاضرات والادب بعضها ببعض ، ويرجعون الى دواوين الشعراء في مخطوطاتها المتنوعة ليبحثوا عن البيت المختلف في نسبته ، ويسلك بعض المحققين اليوم هذا المسلك الدقيق ، ولكنه عمل يحتاج الى جهد كبير من رجال التحقيق العلمي للتراث .

وأذكر هنا بعض اوهام القدماء واضطرابهم في نسبة مقطوعة كاملة، او قصيدة برمتها الى غير قائلها الحقيقي ، وهي مثال صغير جدا من ذلك المزدحم الذي يعج به هذا الباب :

فهناك أربعة أبيات قافيتها رقيقة في الغزل الذي ينفطر فيه قلب المحب ، وهي مشهورة في الحفظ ولكنها مضطربة في النسب ، وهي :

إذا جَنَّ ليلي هام قلبي بذكركمْ أنوح كما ناح الحمام المطوَّقُ
وفوقي سحاب يمطر الهمَّ والأسى وتحتي بحار بالأسى تتدفق
سلوا « أم عمرو » كيف بات أسيرها تفكّ الأسارى دونه وهو موثق
فلا هو مقتول ففي القتل راحة ولا هو ممنون عليه فيطلق

فذكر « ابن خلكان » في الوفيات أنها للصوفي الكبير سيدي أحمد الرفاعي المغربي الأصل العراقي المولد المشهور صاحب الطريقة المعروفة بالأحمدية ، أو البطائحية ، أو الرفاعية والمتوفى سنة ٥٧٨ هـ وفي « طبقات الأولياء » لابن الملقن أنها للرفاعي أيضا . وذكر ابن الجوزي المؤرخ — ضمنا لا صراحة انها لغير الرفاعي . وأيد صاحب « شذرات الذهب » ما ذكره ابن خلكان من أنها لسيدي أحمد الرفاعي. وقد جاء الوهم والخلط مما ذكره ابن الجوزي ، فقد قال ان سبب وفاة الرفاعي رضي الله عنه أبيات أنشدت بين يديه ، تواجد عند سماعها تواجداً كان سبب مرضه الذي مات فيه ، وكان المنشد لهذه الأبيات بين يدي الرفاعي الشيخ « عبد الغني بن نقطة » .

وهذا النص واضح الدلالة على أن الشعر انشده ابن نقطة في مجلس الرفاعي ، فهو ليس للرفاعي ، ولا لابن نقطة ، ولكنه لشاعر

آخر لا يزال غير محقق ولا يزال ينتظر من يكشف اللثام عن أصله ..

وأعجب من هذا قصيدة طويلة كاملة في وصف الربيع الذي نعيش الآن في كنفه يقول فيها صاحبها :

وَرَدَ الربيع فمرحبا بوروده وبنُور بهجته ونَور وروده
وبحسن منظره وطيب نسيمه وأنيق ملبسه ووشي بروده
فصل إذا افتخر الزمان ، فإنه إنسان مقلته ، وبيت قصيده
يا حبذا أزهاره ، وثماره ونباتُ ناجمه ، وحبُّ حصيده
وتجاوُبُ الأطيار في أشجاره كبنات (معبدَ) في مواجب عوده
والغصن قد كسي الغلائل بعدما أخذت يدا (كانون) في تجريده
والورد في أعلى الغصون كأنه ملك تحف به سراة جنوده
وانظر لنرجسه الجنيِّ كأنه طرْفٌ تنبَّه بعد طول هجوده
وانظر إلى المنظوم من منثوره متنوعاً بفصوله ، وعقوده
أو ما ترى الغيم الرقيق ، وما بدا للعين من أشكاله وطروده
والشحب تعقد في السماء مآتما والأرضُ في عرس الزمان وعيده
فابكُر إلى روض (الصراة) وظلِّها فالعيش بين بسيطه ومديده

وقد نسب مؤرخ الأدب : (المرادي) صاحب « سلك الدرر » في أعيان القرن الثاني عشر هذه القصيدة الى (محمد بن الطيب المغربي الفاسي نزيل المدينة المنورة) وهو من ترجم لهم المرادي في كتابه ، وهذا وهم كبير من صاحب سلك الدرر فالقصيدة من شعر صفي الدين

الحِلّي ، ومودعة ديوانه قبل ان يولد ابن الطيب المغربي بقرون ، وقد جاءت في مجاني الادب « للأب شيخو » صحيحة النسب الى صفي الدين ولو أن « المرادي » استعمل الطريق العلمي في التحقيق لتبين له أن « روض الصراة » هو روض مشـــهور بين بغداد والكوفـــة ، فهو من بلاد صفي الدين الحلي • أما ابن الطيب فهو مغربي لم يبـــرح المغرب الا حاجا لبيت الله ومجاورا في الحرم المـــدني ، فهو لايعرف العراق ولا « روض الصراة » • ولا مر بهما •

أما اوهام المحدثين والمعاصرين في نسبة الشعر الى أصحابه ، فهي ثقيلة وغليظة ، ولا مقتضى لها مع وجود الكتب المطبوعة على أعين أصحابها ••

ومن هذه الأوهام ما وقع للأبيات الآتية :

سهرتْ أعينٌ ونامـــت عيـــون لأمـــور تكون ، أو لا تكـــونْ
فاصرف الهم ما استطعت عن النـ ـفس فحملانك الهمـــوم جنون
إن رَبّاً كفـــاك بالأمس ما كـــا ن سيكفيك في غـــدٍ ما يكون

فقد نسبها صاحب كتاب (حفيدة الرسول) ص ٣٦ الى السيدة زينب رضي الله عنها ، كما نسبها العالم السعودي المعاصر الشيخ أحمد العربي الى الإمام الشافعي في كتابه : (الامام الشافعي) وكلا النسبتين غير صحيحة ، والصحيح والمحقق أنها لأبي عبد الله المالقي القرطبي ، كما ذكر ذلك الإمام السيوطي في كتابه (بغية الوعـــاة) جـ٢/ ٣٧ • والقرطبي هذا هو غير الإمام القرطبي المفسر المشهور •

● ومن أغرب الأوهام ما وقع فيه لغوي معاصر من نسبة البيتين الآتيين الى شاعر معاصر :

قل لمن لا يرى الأواخر شيئاً ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان جديدا وسيغدو هذا الجديد قديما

والصحيح المؤكد انهما لابن شرف القيرواني صاحب (رسائل الانتقاد) التي نشرها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب باشا عضو مجمعنا . والقيرواني هذا غير ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب (العمدة) في صناعة الشعر ونقده ، وكانا متعاصرين وبينهما خصومات أدبية ومهاجاة .

● ومن الأوهام في نسبة الشعر كذلك ما وقع في أبيات وصف القطار الحديدي التي تقول :

طرائق" في نواحي القُطر تُبلغنا أقصى المراد ولم تنقل بها قدما
مصر كصفحة قرطاس بتربتها غدا القطار عليها الخط والقلما
لنا غنى عن قطار السحب منسجما ولا غنى عن قطار النار مضطرما

الى أن يقول بيته المشهور في ختامها :

مع السلامة يا من سار مرتحلا عنا ، وأهلا وسهلا بالذي قدما

فقد نسبها المرحومان عبد الفتاح صبري باشا وعلي عمربك في كتابهما : (القراءة الرشيدة) الى مصطفى بك نجيب والد المرحوم سليمان نجيب مدير دار الاوبرا سابقا ، والصواب أنها للشيخ نجيب

الحداد الشاعر اللبناني المتمصر ، وابن شقيقه اليازجي ، ويراها القارىء في ديوانه .

● وهناك الأبيات الرقيقة التي منها :

صاح في العاشقين : يالكنانه رشأ للجفون منه كنانه
بدوي بدت طلائع لحظيه فكانت فتاكة فتانة

الى أن يقول ناظمها هذا البيت المشهور :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنانه

فقد نسبها قوم الى بعض المشارقة ، وتوقف قوم عن نسبتها ، لأنها لم يثبت لها عندهم قائل .. ونسبها صاحب كتاب (الشوارد) وهو من المجمعيين المراسلين — الى ابي فراس الحمداني . والصحيح واليقين أنها للشاعر المصري الحلبي الأصل : « الشهاب الأعزازي » من شعراء العصر المملوكي ، واشتهر بالموشحات وابدع فيها ، كما يشهد له ابن تغري بردى في « المنهل الصافي » وابن حجر في « الدرر الكامنة » وتوجد هذه القصيدة الرقيقة في ديوان الاعزازي المخطوط ، والذي توجد منه نسخة جيدة الخط بمعهد المخطوطات العربية .

● أما القصيدة الوعظية التي اشتهرت بين الداعين الى الزهد في زماننا هذا ، والتي تقول :

الزم باب ربك° واترك كل دون°
لا تجزع لرزقك ما قدّر يكون°

فقد اختلفت قوم في نسبتها الى قائلها ، حتى لقد نسبها صاحب كتاب (الشرق في فجر اليقظة) الى الشيخ حمزة فتح الله المفتش الأول للغة العربية ، وصاحب كتاب (المواهب الفتحية) والصحيح أنها للشيخ محمد عليش شيخ المالكية بالأزهر في عهد اسماعيل ..

● ولقد نسبوا في كتبهم الحديثة أيضا الى الشاعر محمود سامي البارودي الابيات المشهورة :

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديـ ب وفيضي آبار تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا واذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي نفس حرٍّ ترى المذلة كفرا

ولعل الشبهة جاءت من (جبال سرنديب) لأن البارودي الثائر نُفي بعد اخفاق الثورة العرابية الى جزيرة سرنديب او سيلان ، وقضى فيها مع رفاق المنفى شطرا من عمره ، فتوهم المتوهمون ان سرنديب لا تأتي الا على لسان البارودي ، ولا تخرج الا من بين شفتيه ، فنسبوا الأبيات اليه ، وهي من ديوان الشعر الذي ينسب الى الامام الشافعي ، وقد ذكرها المرحوم مصطفى سمير ادهم في كتاب (رحلة الإمام الشافعي الى مصر) منسوبة اليه :

● أما الأبيات التي تقول :

ولست أبالي أن يقال محمد ألظّ أم اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

فقد نسبوها ظلما الى الإمام محمد عبده . ولعل الشبهة هنا

من رفض الدعوة إلى الاصلاح الديني ، بل وهم السيد رشيد رضا صاحب (المنار) وتلميذ الأستاذ الإمام وصفيه ، فنسبها إليه ايضا في كتابه الضخم : (تاريخ الاستاذ الامام) جـ ١ ص ١٠٢٦ ، على الرغم من شدة قربه له ، وصلته به . والصحيح أنها لعالم وفقيه ووزير مغربي مصلح هو الشيخ محمو تنسوس أو اتنسوس ، المتوفى سنة ١٨٧٧ م أي قبل أن يرتفع للأستاذالامام ذكر أو يدعو الى إصلاح. وقد نظمها هذا الوزير الأديب الشاعر أسفا على ما أصاب وطنه الإسلامي من جهل رجال الدين وتقاعسهم ، ونحن مدينون بهذا التصحيح إلى كتاب (الآداب العربية في القرن التاسع عشر) للأب لويس شيخو اليسوعي .

● ونسبوا الى إسماعيل باشا صبري هذين البيتين :

أقول لهم في ساعة الدفن خففوا علي ولا تلقوا الصخورعلىقبري
الم يكف هم في الحياة حملته فأحمل بعدالموت صخرا على صخري؟

وكأنهم استبعدوا أن يكون هذا الشعر لقائله الحقيقي : أحمد شوقي مع ما رزقه الله من ثراء ينتفي معه الهم ، ونسوا أن الهم قد يطرق باب المثري كما يطرق باب المكدي على السواء . فليست هموم الدنيا فَقْدَ مالٍ وحسب وفاتهم أن شوقي قال هذين البيتين في ساعة من ساعات الضيق في الحياة ، ونشرهما صديقه : أنطون الجميل في مجلته (الزهور) في حياة شوقي سنة ١٩١٠ .. فلو لم يكونا لشوقي لأنكر نسبتهما إليه ، ويصحح ذلك في الزهور أو في غيرها ، ولكنه لم يفعل ، ونحن نكبر شوقي أن ينتهب لنفسه شعرا ليس هو صاحبه .

● ونختم هذه الأنساب والنسب الكاذبة في الشعر ببيتين قالوا ان

حافظ ابراهيم نظمهما في شيخ عصري مشـــهور ، وكان معهمـــا في المجلس (مجلس الشراب) أديب" اشتهر بظرفه •• فقام الشيخ يصلي حين حان وقتها ، وبقي حافظ والآخـــر مكبين على على الكؤوس ، فقال حافظ :

الشيخ قـــام يصلى ونحن نشرب عنـــه

تقبـــل الله منـــا ولا تقبـــــل منـــه

والواقع أن حافظ إبراهيم لم يكن ناظما للبيتين ، ولكنه كان مستشهدا بهما من محفوظه ، فنسبهما أصحاب الفكاهات إليه ، وهمـــا من منظوم « المقري » صاحب نفح الطيب وصديقه المـــولى أحمد بن شاهين أديب دمشق وظريفها في القرن الحادي عشر • والحادثة هنـــاك في ذلك الماضي البعيد ••• رحـــم الله الجميع ، وهدانا جميعا ســـواء السبيل •

محمد عبد الغني حسن